

بَابُ قَوْلِ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي إِنْ شِئْتَ

فِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَا يَقُلْ أَحَدُكُمْ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي إِنْ شِئْتَ، اللَّهُمَّ ارْحَمْنِي إِنْ شِئْتَ، لِيُعْزِمَ الْمَسْأَلَةَ؛ فَإِنَّ اللَّهَ لَا مُكْرَهَ لَهُ». وَلِمُسْلِمٍ: «وَلِيُعْظَمَ الرَّغْبَةُ، فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَتَعَاطَمُهُ شَيْءٌ أُعْطَاهُ»^(١).

مُنَاسِبَةُ هَذَا الْبَابِ لِكِتَابِ التَّوْحِيدِ: لَمَّا كَانَ قَوْلُ: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي إِنْ شِئْتَ» يَدُلُّ عَلَى فَتْوَرِ الرَّغْبَةِ، وَقِلَّةِ الْإِهْتِمَامِ بِالْمَطْلُوبِ، وَالِاسْتِغْنَاءِ عَنِ اللَّهِ مِنْ نَاحِيَةٍ، وَيُشْعَرُ بِأَنَّ اللَّهَ - تَعَالَى - قَدْ يَضْطَرُّهُ شَيْءٌ إِلَى فَعْلِ مَا يَفْعَلُ؛ وَفِي هَذَيْنِ الْمُحْذُورَيْنِ مُضَادَّةٌ لِلتَّوْحِيدِ؛ لِذَلِكَ نَاسَبَ عَقْدُ هَذَا الْبَابِ فِي كِتَابِ التَّوْحِيدِ.

بَابُ قَوْلِ اللَّهُمَّ... إلخ: أَي: أَنَّهُ لَا يَجُوزُ.

فِي الصَّحِيحِ: أَي: الصَّحِيحِينَ.

لِيُعْزِمَ الْمَسْأَلَةَ: أَي: لِيَجْزِمَ فِي طَلْبَتِهِ وَيَحَقِّقَ رَغْبَتَهُ وَيَتَيَقَّنَ الْإِجَابَةَ.

لَا مُكْرَهَ لَهُ: أَي: لَا يَضْطَرُّهُ دَعَاءٌ وَلَا غَيْرُهُ إِلَى فَعْلِ شَيْءٍ.

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ بِرَقْم (٦٣٣٩) وَمُسْلِمٌ بِرَقْم (٢٦٧٩).

وليعظَّم الرغبة: بتشديد الظاء أن: يلحُّ في طلبِ الحاجةِ .
لا يتعاضَّم شيءٌ أعطاهُ: أي: لا يكبرُ ولا يعسرُ عليه .

المعنى الإجماليُّ للحديث: ينهى ﷺ عن تعليقِ طلبِ المغفرةِ
والرحمةِ مِن اللهِ على المشيئةِ، ويأمرُ بعزمِ الطلبِ دُونَ تعليقٍ؛ ويعلُّ
ذلكَ بأنَّ تعليقَ الطلبِ مِن اللهِ على المشيئةِ يشعرُ بأنَّ اللهَ يُثقلُ شيءٌ مِن
حوادثِ خلقِهِ أو يضطرُّه شيءٌ إلى قضائِها، وهذا خلافُ الحقِّ؛ فإنَّه هو
الغنيُّ الحميدُ الفعالُ لِمَا يريدُ .

كما يشعرُ ذلكَ بفتورِ العبدِ في الطلبِ واستغنائِهِ عَن رَبِّه؛ وهو لا
غنىَ لَهُ عَن اللهِ طرفَةً عَيْنٍ .

مناسبةُ الحديثِ للبابِ: أنَّ فيه النهيَ عن تعليقِ طلبِ المغفرةِ مِن
اللهِ بالمشيئةِ وبيانَ علَّةِ ذلكَ .

ما يُستفادُ مِنَ الحديثِ:

- ١ - النهيُ عَن تعليقِ طلبِ المطلوبِ مِن اللهِ - بمشيئَتِهِ - والأمرُ بإطلاقِ
سؤالِ اللهِ دُونَ تقييدِ .
- ٢ - تنزيهُ اللهِ عَمَّا لَا يَلِيْقُ بِهِ، وسعةُ فَضْلِهِ، وكمالُ غِنَاهُ، وكرمهُ وجودُهُ
سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى .

* * *

بَابُ: لَا يَقُولُ عَبْدِي وَأَمْتِي

فِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - : أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « لَا يَقُولُ أَحَدُكُمْ : أَطْعِمُ رَبِّكَ ، وَصِيءُ رَبِّكَ ، وَلْيَقُلْ : سَيِّدِي وَمَوْلَايَ ، وَلَا يَقُلْ أَحَدُكُمْ : عَبْدِي وَأَمْتِي ، وَلْيَقُلْ : فَتَايَ وَفَتَاتِي وَعُغْلَامِي » ^(١) .

مناسبةُ هذا البابِ لكتابِ التوحيدِ : أَنَّ التلَفُظَ بهذه الألفاظِ المذكورةِ يوهمُ المشاركةَ في الربوبيةِ ، فَنَهَى عَنْهُ تَأْذِبًا مَعَ الربوبيةِ ، وحمايةً للتوحيدِ بسدِّ الذرائعِ المفضيةِ إلى الشركِ .

فِي الصَّحِيحِ : أَيُ : الصَّحِيحِينَ .

لَا يَقُولُ أَحَدُكُمْ : لَا : نَاهِيَّةٌ ، وَالْفِعْلُ بَعْدَهَا مَجْزُومٌ بِهَا ، أَيُ : لَا يَقُولُ ذَلِكَ لِمَمْلُوكِهِ .

أَطْعِمُ رَبِّكَ : بفتحِ الهمزةِ أَمْرٌ مِنَ الإِطْعَامِ .

وَصِيءُ رَبِّكَ : أَمْرٌ مِنَ التَّوَضُّعِ ، وَالنَّهْيُ فِي الْمَوْضِعَيْنِ لِمَنْعِ الْمُضَاهَاةِ لِلَّهِ سُبْحَانَهُ لِأَنَّهُ هُوَ الرَّبُّ . وَهَذَا الْمَنْعُ يَخْتَصُّ فِي مَنْعِ الرَّبوبِيَّةِ لِلْإِنْسَانِ ، بِخِلَافِ غَيْرِهِ فَيُقَالُ رَبُّ الدَّارِ وَالدَّابَّةِ .

وَلْيَقُلْ سَيِّدِي : لِأَنَّ السِّيَادَةَ مَعْنَاهَا الرَّئِيسَةُ عَلَى مَا تَحْتَ يَدِهِ .

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ بِرَقْمٍ (٢٥٥٢) وَمُسْلِمٌ بِرَقْمٍ (٢٢٤٩) .

وأيضاً هناك فرق بين الربِّ والسيد: فإنَّ الربَّ من أسماء الله بالاتفاق بخلاف السيد فقد اختلف في كونه من أسماء الله. وعلى القول بأنه منها فليس له من الشهرة وكثرة الاستعمال مثل ما للربِّ.
ومولاي: المولى يطلق على معانٍ كثيرة منها: المالك وهو المراد هنا.

ولا يَقُلْ أَحَدُكُمْ عَبْدِي وَأَمْتِي: لأنَّ الذي يستحقُّ العبودية هو الله سبحانه؛ ولأنَّ في ذلك تعظيماً لا يستحقُّه المخلوق.
وَلْيَقُلْ فَتَايَ وَفَتَاتِي وَغُلَامِي: لأنَّ هذه الألفاظ لا تدلُّ على العبودية كدلالة عَبْدِي وَأَمْتِي، وفيها تجنبٌ للإيهام والتعاضُّم.
المعنى الإجماليُّ للحديث: يَنْهَى ﷺ عَنِ التَّلَفُّظِ بِالْأَلْفَاظِ الَّتِي تُوْهِمُ الشُّرْكَ، وفيها إساءةٌ أدبٍ مَعَ الله كإطلاقِ ربوبيةِ إنسانٍ لإنسانٍ أو عبوديةِ إنسانٍ لإنسانٍ؛ لأنَّ الله هو الربُّ المعبودُ وحده. ثم أرشد ﷺ إلى اللفظِ السليم الذي لا إيهام فيه؛ ليكونَ بديلاً مِنَ اللفظِ الموهِم، وهذا منه ﷺ حمايةٌ للتوحيد وحفاظاً على العقيدة.
مناسبة الحديث للباب: أنَّ فيه النهيَ عَنْ قولِ: عَبْدِي وَأَمْتِي.
ما يُستفادُ مِنَ الحديثِ:

- ١ - النهيُ عَنِ استعمالِ الألفاظِ الَّتِي تُوْهِمُ الشُّرْكَ.
- ٢ - سدُّ الطرقِ الموصلةِ إلى الشُّرْكَ.
- ٣ - ذكرُ البديلِ الذي لا محذورَ فيه؛ لِيستعملَ مكانَ ما فيه محذورٌ مِنَ الألفاظِ.

بَاب: لَا يَرُدُّ مَنْ سَأَلَ بِاللَّهِ

عَنِ ابْنِ عُمَرَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ اسْتَعَاذَ بِاللَّهِ فَأَعِيدُوهُ، وَمَنْ سَأَلَ بِاللَّهِ فَأَعْطُوهُ، وَمَنْ دَعَاكُمْ فَأَجِيبُوهُ، وَمَنْ صَنَعَ إِلَيْكُمْ مَعْرُوفًا فَكَافِئُوهُ، فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا مَا تُكَافِئُونَهُ؛ فَادْعُوا لَهُ حَتَّى تَرَوْا أَنَّكُمْ قَدْ كَفَّائْتُمُوهُ»^(١). رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالتَّسَائِيُّ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ.

مناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد: لأنَّ في عدم إعطاء مَنْ سَأَلَ بِاللَّهِ عدم إعظام الله، وعدم إجلال له؛ وَذَلِكَ يُخِلُّ بالتوحيد. مَنْ استعاذَ بالله: أي: مَنْ لجأ إلى الله وسألكم أَنْ تَدْفَعُوا عنه شرَّكم أو شرَّ غيركم. فَأَعِيدُوهُ: أي: امنعوه ممَّا استعاذ مِنْهُ وكفَّوه عنه تعظيماً لاسم الله. وَمَنْ سَأَلَ بِاللَّهِ: بَأْنُ قَالَ: أَسْأَلُكَ بِاللَّهِ. فَأَعْطُوهُ: أي: أَعْطُوهُ مَا سَأَلَ مَا لَمْ يَسْأَلْ إِثْمًا أو قطيعة رَحِمٍ. وَمَنْ دَعَاكُمْ: أي: إلى طعام أو غيره. فَأَجِيبُوهُ: أي: أَجِيبُوا دَعْوَتَهُ. وَمَنْ صَنَعَ إِلَيْكُمْ: أي: مَنْ أَحْسَنَ إِلَيْكُمْ أيَّ إِحْسَانٍ.

(١) أخرجه أبو داود (رقم ١٦٧٢، ٥١٠٩) وعبد بن حميد (رقم ٨٠٦)، والتسائي (٨٢/٥) ذ.

معروفاً: المعروفُ: اسمُ جامعٍ للخيرِ .
فَكَافَتْهُ: أي: على إحسانِهِ بِمِثْلِهِ أو خيرٍ مِنْهُ .
فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا: أي: لَمْ تَقْدِرُوا على مُكَافَأَتِهِ .
فادْعُوا لَهُ... إلخ: أي: فَبَالِغُوا فِي الدُّعَاءِ لَهُ جُهْدَكُمْ .
المعنى الإجماليُّ للحديث .

يَأْمُرُ ﷺ فِي هَذَا الْحَدِيثِ بِخَصَالٍ عَظِيمَةٍ، فِيهَا تَعْظِيمُ حَقِّ اللَّهِ
سُبْحَانَهُ بِإِعْطَاءِ مَنْ سَأَلَ بِهِ، وَإِعَادَةِ مَنْ اسْتَعَاذَ بِهِ، وَتَعْظِيمُ لِحَقِّ الْمُؤْمِنِ
مِنْ إِبْجَابَةِ دَعْوَتِهِ، وَمُكَافَأَتِهِ عَلَى إِحْسَانِهِ بِمِثْلِهِ أَوْ أَحْسَنَ مِنْهُ مَعَ الْقُدْرَةِ،
وَمَعَ عَدَمِهَا بِإِحَالَةِ مُكَافَأَتِهِ إِلَى اللَّهِ بِطَلْبِ الْخَيْرِ لَهُ مِنْهُ .
مناسبةُ الحديثِ للبابِ: أَنَّ فِيهِ الْأَمْرَ بِإِعْطَاءِ مَنْ سَأَلَ بِاللَّهِ وَعَدَمَ
رَدِّهِ .

مَا يُسْتَفَادُ مِنَ الْحَدِيثِ :

- ١ - أَنَّهُ لَا يَرُدُّ مَنْ سَأَلَ بِاللَّهِ إِجْلَالاً لِلَّهِ وَتَعْظِيماً لَهُ .
- ٢ - أَنَّ مَنْ اسْتَعَاذَ بِاللَّهِ وَجَبَتْ إِعَادَتُهُ وَدَفْعُ الشَّرِّ عَنْهُ .
- ٣ - مَشْرُوعِيَّةُ إِبْجَابَةِ دَعْوَةِ الْمُسْلِمِ لَوْلِيْمَةٍ أَوْ غَيْرِهَا .
- ٤ - مَشْرُوعِيَّةُ مُكَافَأَةِ الْمُحْسِنِ عِنْدَ الْقُدْرَةِ .
- ٥ - مَشْرُوعِيَّةُ الدُّعَاءِ لِلْمُحْسِنِ عِنْدَ الْعَجْزِ عَنْ مُكَافَأَتِهِ .

* * *

بَاب: لَا يُسْأَلُ بِوَجْهِ اللَّهِ إِلَّا الْجَنَّةُ

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا يُسْأَلُ بِوَجْهِ اللَّهِ إِلَّا الْجَنَّةُ»^(١). رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ.

مناسبة الباب لكتاب التوحيد: أنه يجبُ احترامُ أسماءِ الله وصفاته؛ فلا يُسألُ شيءٌ من المطالبِ الدنيويةِ بوجهِ الكريم؛ بل يُسألُ به أهمُّ المطالبِ وأعظمُ المقاصدِ وهو الجنةُ، فهذا من حقوقِ التوحيد.

لا يُسألُ: رُوِيَ بالنفي ورُوِيَ بالنهي.

بوجهِ الله: هو صفةٌ من صفاته الذاتية يليقُ بجلاله وعظمته.

إلا الجنة: أو ما هو وسيلةٌ إليها من المقاصدِ العظام.

المعنى الإجماليُّ للحديث: ينهى ﷺ أن يُسألَ بوجهِ الله الكريم الأمورَ الحقيرةَ وحوائجِ الدنيا؛ إجلالاً لله وتعظيماً له، ويُقصرُ ﷺ السؤالَ بوجهِ الله على الجنةِ التي هي غايةُ المطالبِ.

مناسبة الحديث للباب: أنَّ فيه النهيَ عن أن يُسألَ بوجهِ الله غيرِ الجنة.

ما يُستفادُ من الحديث:

١ - إثباتُ الوجهِ لله سبحانه على ما يليقُ بجلاله كسائرِ صفاته.

(١) أخرجه أبو داود برقم (١٦٧١).

- ٢ - وجوبُ تعظيمِ اللهِ واحترامِ أسمائِهِ وصفاتِهِ .
- ٣ - جوازُ سؤالِ الجنَّةِ - والأُمُورِ الموصَّلةِ إليها - بِوَجْهِ اللهِ والمنعُ مِنْ أَنْ يُسألَ بِهِ شَيْءٌ مِنْ حوائِجِ الدُّنْيَا .

* * *

بَابُ مَا جَاءَ فِي اللُّو

وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى : ﴿ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَهُنَا . . . ﴾ الآية .

تمامُ الآية : ﴿ قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ [آل عمران : ١٥٤] .

مناسبةُ هذا البابِ لكتابِ التوحيد : أنَّ مِنْ كمالِ التوحيدِ الاستسلامَ للقضاءِ والقدرِ ؛ وأنَّ قولَ : (لو) لا يُجدي شيئاً ، وهو يشعرُ بعدمِ الرضا بالقدرِ وهذا مخلٌّ بالتوحيد .

ما جاء في اللو : أي : مِنْ الوعيدِ والنهي عنه .
يقولون : أي : يقولُ بعضُ المنافقين يومَ أحدٍ معارضةً للقدرِ .
لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ : أي : لَوْ كَانَ الاختيارُ إلينا .
مَا قُتِلْنَا هَهُنَا : أي : لَمَّا غَلَبْنَا وَلَمَّا قُتِلَ مَنْ قُتِلَ مِنَّا فِي هَذِهِ المعركة .

لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ : أي : وَفِيكُمْ مَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْقَتْلُ .
لَبَرَزَ : أي خَرَجَ .
الَّذِينَ كُتِبَ : أي قُضِيَ .
عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ : أي : مِنْكُمْ .
إِلَى مَضَاجِعِهِمْ : أي : مَصَارِعِهِمْ فيقتلون وَلَمْ يُنَجِّهِمْ قُودُهُمْ ؛

لأنَّ قضاءَ اللهِ كائنٌ لا محالةً .

وليبتلي اللهُ: أي: يختبرُ.

ما في صدورِكُمْ: أي: قُلُوبِكُمْ مِنَ الإخلاصِ والنفاقِ .

وليمحصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ: أي: يُمَيِّزُ مَا تَنْطَوِي عليه مِنَ النياتِ .

بذاتِ الصدورِ: بِمَا فِي القلوبِ فهو غنيٌّ عَنِ الابتلاءِ وإنما يَفْعَلُهُ

ليظهرَ لِلنَّاسِ وليترتَّبَ عليه الثوابُ والعقابُ .

المعنى الإجماليُّ لِلآيةِ: يخبرُ اللهُ - سبحانه - عَمَّا كَانَ يَكُنُّهُ

المنافقون يومَ وقعةِ أحدٍ مِنَ الاعتراضِ على القدرِ والتسحُّطِ لما وَقَعَ

عليهم مِنَ اللهِ، وأنهم يقولون: لو كَانَ الاختيارُ والمشورةُ إلينا ما

خَرَجْنَا؛ وَلَنَجُونَ مِمَّا حَصَلَ مِنَ الهزيمةِ والقتلِ، فردَّ اللهُ عليهم بأنَّ ما

حَصَلَ قَدَرٌ مَقْدَرٌ لا ينجي منه البقاءُ فِي البيوتِ؛ فالتلَهُفُ وقولُ: (لَوْ) لَا

يُجْدِي شيئاً .

مناسبةُ الآيَةِ لِلْبَابِ: أَنَّ قولَ: (لو) فِي الأمورِ المَقْدَرَةِ لا يجوزُ؛

وهو مِنْ كلامِ المنافقين .

ما يُسْتَفَادُ مِنَ الآيَةِ:

١ - النهيُ عَنْ قولِ: (لو) فِي الأمورِ المَقْدَرَةِ؛ لَأَنَّهَا تدلُّ على التسحُّطِ

على القدرِ وتجذُّدِ الأُحْزَانِ فِي النفوسِ، أَمَّا قولُ: (لو) تَنْدُمَا على

فواتِ الطاعةِ فلا بأسَ بِهِ؛ لَأَنَّهُ يدلُّ على الرغبةِ فِي الخيرِ .

٢ - مشروعِيَّةُ الاستسلامِ لِلقضاءِ والقدرِ وعدمِ تَسَحُّطِهِ .

٣ - أَنَّ الحذرَ لا يُنْجِي مِنَ القدرِ .

٤ - أَنَّ مَنْ كُتِبَ عليه الموتُ فِي محلٍّ فَلَا بُدَّ أَنْ يذهبَ إِلَيْهِ، وَلَوْ حاولَ

الامتناعَ عنه .

وَقَوْلِهِ: ﴿الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾
الآية.

تمامُ الآية: ﴿قُلْ فَأَدْرَأُ عَنْ أَنْفُسِكُمْ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [آل عمران: ١٦٨].

قالوا لِإِخْوَانِهِمْ: أي: قالوا للمسلمين المجاهدين، سُمُّوا
إِخْوَانُهُمْ؛ لموافقيتهم في الظاهر، وقيل: إِخْوَانُهُمْ في النسب.
وَقَعَدُوا: أي: عَنِ الجهادِ.
لَوْ أَطَاعُونَا: أي: فِي القعودِ.
مَا قُتِلُوا: أي: كَمَا لَمْ نَقْتُلْ.
قُلْ: أي: لَهُؤْلَاءِ.

فادرءوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ: أي: اذْفَعُوهُ عَنْهَا.
إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ: أي: فِي أَنَّ القعودَ يُنْجِي مِنْهُ.

المعنى الإجماليُّ للآية: يَنْكُرُ تَعَالَى عَلَى الْمُنَافِقِينَ الَّذِينَ
يُعَارِضُونَ الْقَدَرَ بِقَوْلِهِمْ لِمَنْ خَرَجَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ أُحُدٍ: لَوْ سَمِعُوا
مَشُورَتَنَا عَلَيْهِم بِالْقَعُودِ وَعَدَمِ الْخُرُوجِ مَا قُتِلُوا مَعَ مَنْ قُتِلَ، وَيَرُدُّ عَلَيْهِم
بَأَنَّهُمْ إِنْ كَانُوا يَقْدِرُونَ عَلَى دَفْعِ الْقَتْلِ عَمَّنْ كُتِبَ عَلَيْهِ فَلْيَدْفَعُوا الْمَوْتَ
عَنْ أَنْفُسِهِمْ، فَهِيَ أَوْلَى بِالدَّفْعِ عَنْهَا، فَإِذَا لَمْ يَقْدِرُوا عَلَى الدَّفْعِ عَنْهَا
فغَيْرُهَا مِنْ بَابِ أَوْلَى.

مناسبة الآية للباب: أَنَّ قَوْلَ: (لَوْ) فِي الْأُمُورِ الْمَقْدَرَةِ مِنْ سَمَاتِ

المنافقين .

ما يُستفادُ مِنَ الآية :

١ - التحذيرُ مِنْ قولِ : (لو) على وجهِ المعارضةِ للقدرِ والتأسفِ على المصائبِ .

٢ - أنَّ مقتضى الإيمانِ الاستسلامَ للقضاءِ والقدرِ ؛ وأنَّ عدمَ الاستسلامِ لَهُ مِنْ صفاتِ المنافقين .

٣ - مشروعيةُ مجادلةِ المنافقين وغيرِهِمْ مِنْ أَهلِ الباطلِ ؛ لإبطالِ شُبُهِهِمْ ودَحْضِ أَباطيلِهِمْ .

* * *

فِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - : أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « اَحْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ ، وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ ، وَلَا تَعْجِزَنَّ ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلَا تَقُلْ : لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَذَا ؛ لَكَانَ كَذَا وَكَذَا ، وَلَكِنْ قُلْ : قَدَرُ اللَّهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ ؛ فَإِنْ لَوْ تَفَتَحَ عَمَلَ الشَّيْطَانِ »^(١) .

فِي الصَّحِيحِ : أَي : فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ .
 اَحْرِصْ : اَلْحَرِصُ هُوَ : بِذَلِكَ الْجَهْدِ وَاسْتِفْرَاحُ الْوَسْعِ .
 عَلَى مَا يَنْفَعُكَ : يَعْنِي : فِي مَعَاشِكَ وَمَعَادِكَ .
 وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ : أَي : اَطْلُبِ الْإِعَانَةَ فِي جَمِيعِ أُمُورِكَ مِنَ اللَّهِ لَا مِنْ غَيْرِهِ .
 وَلَا تَعْجِزَنَّ : بِكَسْرِ الْجِيمِ وَفَتْحِهَا : أَي : لَا تُفَرِّطْ فِي طَلَبِ مَا يَنْفَعُكَ مَتَكَلِّاً عَلَى الْقَدْرِ ، وَمُسْتَسْلِماً لِلْعَجْزِ وَالْكَسَلِ .
 وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ : أَي : وَإِنْ غَلَبَكَ أَمْرٌ وَلَمْ يَحْصُلِ الْمَقْصُودُ بَعْدَ بِذَلِكَ الْجَهْدِ وَالِاسْتِطَاعَةِ .
 فَلَا تَقُلْ : لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَذَا : أَي : فَإِنَّ هَذَا الْقَوْلَ لَا يُجِدِي عَلَيْكَ شَيْئاً .
 وَلَكِنْ قُلْ : قَدَرُ اللَّهِ : أَي : لِأَنَّ مَا قَدَرَهُ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ وَالْوَاجِبُ التَّسْلِيمُ لِلْمَقْدُورِ .

فَإِنْ لَوْ تَفَتَحَ عَمَلَ الشَّيْطَانِ : أَي : لِمَا فِيهَا مِنَ التَّأْسُفِ عَلَى مَا فَاتَ

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٦٦٤) وأحمد (٣٦٦/٢ ، ٣٧٠) .

والتحشّر والحزن ولوم القدر.

المعنى الإجمالي للحديث: يأمر النبي ﷺ في هذا الحديث بالحرص على النافع من الأعمال، والاستعانة بالله في القيام بها، وترقب ثمراتها، وينهي عن العجز؛ لأنه ينافي الحرص على ما ينفع، ولما كان الإنسان معرضاً للمصائب في هذه الدنيا أمر بالصبر والتحمل وعدم التلوم بقول: لو أنني فعلت، لو أنني تركت؛ لأن ذلك لا يجدي شيئاً مع أنه يفتح على الإنسان ثغرة لعدوه الشيطان يدخل عليه منها فيؤخذ به.

مناسبة ذكر الحديث في الباب: أن فيه النهي عن قول: (لو) عند نزول المصائب، وبيان ما يترتب على قولها من المفسدة. ما يستفاد من الحديث:

- ١ - الحث على الاجتهاد في طلب النفع العاجل والآجل ببذل أسبابه.
- ٢ - وجوب الاستعانة بالله في القيام بالأعمال النافعة والنهي عن الاعتماد على الحول والقوة.
- ٣ - النهي عن العجز والبطالة وتعطيل الأسباب.
- ٤ - إثبات القضاء والقدر وأنه لا ينافي بذل الأسباب والسعي في طلب الخيرات.
- ٥ - وجوب الصبر عند نزول المصائب.
- ٦ - النهي عن قول: (لو) على وجه التسخط عند نزول المصائب وبيانه مفسدتها.
- ٧ - التحذير من كيد الشيطان.

بَابُ النَّهْيِ عَنْ سَبِّ الرِّيحِ

عَنْ أَبِي بَنْ كَعْبٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - : أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ :
« لَا تَسُبُّوا الرِّيحَ ، فَإِذَا رَأَيْتُمْ مَا تَكْرَهُونَ فَقُولُوا : اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ
مِنْ خَيْرِ هَذِهِ الرِّيحِ وَخَيْرِ مَا فِيهَا وَخَيْرِ مَا أُمِرْتُ بِهِ ، وَنَعُوذُ بِكَ مِنْ
شَرِّ هَذِهِ الرِّيحِ وَشَرِّ مَا فِيهَا وَشَرِّ مَا أُمِرْتُ بِهِ » ^(١) صَحَّحَهُ
التِّرْمِذِيُّ .

مناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد : أَنَّ سَبَّ الرِّيحِ سَبٌّ لِمَدْبَرِهَا
وهو الله تَعَالَى ؛ لأنها تَجْرِي بِأَمْرِه ، فَسُبُّهَا مَخْلٌُّ بِالتَّوْحِيدِ .
التراجم : أَبِي هُوَ : أَبِي بَنْ كَعْبِ بْنِ قَيْسِ الْأَنْصَارِيِّ سَيِّدُ الْقُرَاءِ
شَهِدَ الْعُقْبَةَ وَبَدْرًا وَالْمَشَاهِدَ كُلَّهَا ، قِيلَ : مَاتَ فِي خِلَافَةِ عُمَرَ ، وَقِيلَ :
فِي خِلَافَةِ عُثْمَانَ سَنَةَ ٣٠ هـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .
لا تَسُبُّوا الرِّيحَ : أَي : لَا تَسْتَمْوِهَا وَلَا تَلْعَنُوهَا لِلْحَقِّ ضَرَرٍ
بَسْبِهَا .

فَإِذَا رَأَيْتُمْ مَا تَكْرَهُونَ : أَي : مِنْ الرِّيحِ إِمَّا شِدَّةَ حَرِّهَا أَوْ بَرْدَهَا أَوْ
قُوَّتَهَا .

فَقُولُوا اللَّهُمَّ . . . إلخ : رَجُوعٌ إِلَى خَالِقِهَا وَمَدْبَرِهَا بِسْؤَالِهِ خَيْرَهَا

(١) أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ بِرَقْمٍ (٢٢٥٣) ، وَأَحْمَدُ (١٢٣/٥) .

ودفع شرّها .

المعنى الإجمالي للحديث: ينهى ﷺ عن سبّ الرّيح؛ لأنّها مخلوقة مأمورة من الله، فسبّها سبّ لله وتسخطّ لقضائه، ثم أرشد ﷺ إلى الرجوع إلى خالقها بسؤاله من خيرها والاستعاذة به من شرّها؛ لما في ذلك من العبودية لله - تعالى - وذلك هو حال أهل التوحيد .
مناسبة الحديث للباب: أنّ فيه النهي عن سبّ الرّيح .
ما يُستفاد من الحديث:

- ١ - النهي عن سبّ الرّيح؛ لأنّها خلق مدبرٌ فيرجع السبّ إلى خالقها ومدبرها .
- ٢ - الرجوع إلى الله والاستعاذة به من شرّ ما خلق .
- ٣ - أنّ الرّيح تكون مأمورة بالخير وتكون مأمورة بالشرّ .
- ٤ - الإرشاد إلى الكلام النافع إذا رأى الإنسان ما يكره للسلامة من شرّه .

* * *

بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى

﴿يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾ الآية .

تمامُ الآية : ﴿يُخَفُّونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا ههنا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [آل عمران : ١٥٤] .

مناسبةُ هذا البابِ لكتابِ التوحيد : التنبيهُ على أنَّ حسنَ الظنِّ باللهِ مِنْ واجباتِ التوحيدِ ، وأنَّ سوءَ الظنِّ باللهِ يُنافي التوحيدَ .
يظنون : أي : المنافقون ، والظنُّ في الأصل - خلافُ اليقين .
غيرَ الحقِّ : أي : غيرَ الظنِّ الحقِّ .

ظنَّ الجاهلية : بدلٌ مِنْ (غيرِ الحقِّ) أي : الظنُّ المنسوبُ إلى أهلِ الجهلِ حيثَ اعتقدوا أنَّ اللهَ لا ينصرُ رسولَهُ والمرادُ بالجاهلية ما قبلَ الإسلامِ .

يقولون : بدلٌ مِنْ (يظنون) .

هل لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ : استفهامٌ بمعنى النفي أي : مَا لَنَا مِنَ النَصْرِ وَالظْفَرِ نَصِيبٌ قَطُّ . أو قَدْ مُنِعْنَا مِنْ تَدْبِيرِ أَنْفُسِنَا فلم يبقَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ .

قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ : أي : ليسَ لَكُمْ ولا لِغَيْرِكُمْ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ بَلْ

الأمرُ كُلُّهُ لله فهو الذي لا رادَّ لِمَا شَاءَهُ وأَرَادَهُ .

يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ : أي : مِنَ الْإِنْكَارِ وَالتَّكْذِيبِ .

ما لا يُبْدُونَ لَكَ : أي : غيرَ الذي يُظْهِرُونَ لَكَ مِنَ الْإِيمَانِ وَطَلَبِ

الاسترشاد .

وبقية المفردات تقدَّم شرحُها في بابِ مَا جَاءَ فِي اللُّوِّ .

المعنى الإجماليُّ لِلآيَةِ : يخبرُ تَعَالَى عَمَّا حَصَلَ مِنَ الْمُنَافِقِينَ يَوْمَ أَحَدٍ أَنَّهُمْ ظَنُّوا بِاللَّهِ الظَّنَّ الْبَاطِلَ ، وَأَنَّهُ لَا يَنْصُرُ رَسُولَهُ ، وَأَنَّ أَمْرَهُ سَيُضْمَحِلُّ ، وَأَنَّ الْأَمْرَ لَوْ كَانَ إِلَيْهِمْ وَكَانَ الرَّسُولُ ﷺ وَأَصْحَابُهُ تَبْعًا لَهُمْ يَسْمَعُونَ مِنْهُمْ ؛ لَمَا أَصَابَهُمُ الْقَتْلُ ، وَلَكَانَ النَّصْرُ وَالظَّفَرُ لَهُمْ ؛ فَأَكْذَبَهُمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي هَذَا الظَّنِّ ، وَبَيَّنَّ أَنَّهُ لَا يَكُونُ وَلَا يَحْدُثُ إِلَّا مَا سَبَقَ بِهِ قَضَاؤُهُ وَقَدْرُهُ وَجَرَى بِهِ كِتَابُهُ السَّابِقُ وَأَنَّهُ لَا رَادَّ لِقَضَائِهِ .

ما يُسْتَفَادُ مِنَ الْآيَةِ :

١ - أَنَّ مَنْ ظَنَّ أَنَّ اللَّهَ يَدِيلُ الْبَاطِلَ عَلَى الْحَقِّ إِدَالَةً مُسْتَمِرَّةً يَضْمَحِلُّ مَعَهَا الْحَقُّ اضمحلالاً لَا يَقُومُ بَعْدَهُ فَقَدْ ظَنَّ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنًّا الْجَاهِلِيَّةَ .

٢ - إِبْثَاتُ الْحِكْمَةِ فِيمَا يُجْرِيهِ اللَّهُ مِنْ ظُهُورِ الْبَاطِلِ أحياناً .

٣ - بَيَانُ خَبِثِ طَوِيَّةِ الْمُنَافِقِينَ ، وَأَنَّهُمْ عِنْدَ الشَّدَائِدِ يَظْهَرُ مَا عِنْدَهُمْ مِنَ النِّفَاقِ .

٤ - إِبْثَاتُ الْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ .

٥ - وَجُوبُ تَنْزِيهِ اللَّهِ عَمَّا لَا يَلِيقُ بِهِ سُبْحَانَهُ .

٦ - وَجُوبُ حَسَنِ الظَّنِّ بِاللَّهِ تَعَالَى .

وَقَوْلِهِ: ﴿الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾ الآية .

تمامُ الآية: ﴿وَعَضَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [الفتح: ٦] .

الظَّالِمِينَ: أي: المُسِيئِينَ الظَّنَّ بِاللَّهِ مِنَ المنافقين والمنافقات .
ظَنَّ السَّوْءَ: بفتح السين وضمِّها، أي: ظنَّ الأمرِ السَّوْءَ وهو: أَنْ لا ينصرُ رسولَهُ والمؤمنين .
عليهِمْ دائرةُ السَّوْءِ: أي: دائرة العذاب والذل لازمة لهم لا تتخطاهم .

وَعَضَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ: أي: سَخِطَ عَلَيْهِمْ وَأَبْعَدَهُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ .

وَأَعَدَّ لَهُمْ: أي: هَيَّأَ لَهُ فِي الآخِرَةِ .

جَهَنَّمَ: أي: النارَ الشديدةَ العذابِ .

وسَاءَتْ مَصِيرًا: أي: منزلاً يَصِيرُونَ إليه يومَ القيامةِ .

المعنى الإجماليُّ للآية: يَقُولُ تَعَالَى: عَلَى الَّذِينَ يَتَّهِمُونَ اللَّهَ فِي حُكْمِهِ، وَيُظَنُّونَ أَنَّهُ لَا يَنْصُرُ رَسُولَهُ ﷺ وَأَصْحَابَهُ وَاتِّبَاعَهُ، - عَلَى أَعْدَائِهِمْ - دَائِرَةُ الْعَذَابِ وَأَبْعَدَهُمُ اللَّهُ مِنْ رَحْمَتِهِ، وَهَيَّأَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ نَارًا يَصِيرُونَ إِلَيْهَا شَرُّ مَا يُصَارُ إِلَيْهِ .

مناسبة الآية للباب: أَنَّ فِيهَا أَنَّ مَنْ ظَنَّ أَنَّ اللَّهَ لَا يَنْصُرُ حَزْبَهُ عَلَى أَعْدَائِهِ فَقَدْ ظَنَّ بِهِ ظَنَّ السَّوْءِ .

ما يُستفادُ مِنَ الآيَةِ :

- ١ - التحذيرُ مِنْ سوءِ الظنِّ باللهِ ووجوبِ حسنِ الظنِّ بهِ .
- ٢ - أَنَّ مَنْ ظَنَّ أَنَّ اللهَ لَا ينصرُ رسولَهُ ودينَهُ فَقَدْ ظَنَّ بِهِ ظَنًّا سوءً .
- ٣ - وصفُ اللهِ بأنَّه يغضبُ على أعدائِهِ ويلعنُهُمْ .
- ٤ - بيانُ عاقبةِ الكفارِ والمنافقين .

* * *

قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ - رَحِمَهُ اللَّهُ - فِي آيَةِ الْأُولَى : «فُسِّرَ هَذَا الظَّنُّ بِأَنَّهُ سُبْحَانُهُ لَا يَنْصُرُ رَسُولُهُ، وَأَنَّ أَمْرَهُ سَيُضْمَحِلُّ، وَأَنَّ مَا أَصَابَهُمْ لَمْ يَكُنْ بِقَدَرِ اللَّهِ وَحِكْمَتِهِ، فَفُسِّرَ بِانْكَارِ الْحِكْمَةِ، وَانْكَارِ الْقَدَرِ، وَانْكَارِ أَنْ يُتِمَّ أَمْرُ رَسُولِهِ وَأَنْ يُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ، وَهَذَا هُوَ ظَنُّ السَّوِّءِ الَّذِي ظَنَّهُ الْمُتَنَافِقُونَ وَالْمُشْرِكُونَ فِي سُورَةِ الْفَتْحِ، وَإِنَّمَا كَانَ هَذَا ظَنُّ السَّوِّءِ ؛ لِأَنَّهُ ظَنُّ غَيْرِ مَا يَلِيقُ بِهِ سُبْحَانُهُ وَمَا يَلِيقُ بِحِكْمَتِهِ وَحَمْدِهِ وَوَعْدِهِ الصَّادِقِ .

فَمَنْ ظَنَّ أَنَّهُ يُدِيلُ الْبَاطِلَ عَلَى الْحَقِّ إِدَالَةً مُسْتَقَرَّةً يَضْمَحِلُّ مَعَهَا الْحَقُّ، أَوْ أَنْكَرَ أَنْ يَكُونَ مَا جَرَى بِقَضَائِهِ وَقَدَرِهِ، أَوْ أَنْكَرَ أَنْ يَكُونَ قَدَرُهُ لِحِكْمَةٍ بِالْغَةِ يَسْتَحِقُّ عَلَيْهَا الْحَمْدَ، بَلْ زَعَمَ أَنَّ ذَلِكَ لِمَشِيئَةٍ مُجَرَّدَةٍ فَ ﴿ ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ﴾ [سورة ص: ٢٧] . وَأَكْثَرُ النَّاسِ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ ظَنُّ السَّوِّءِ فِيمَا يَخْتَصُّ بِهِمْ، وَفِيمَا يَفْعَلُهُ بغيرِهِمْ، وَلَا يَسْلَمُ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا مَنْ عَرَفَ اللَّهَ وَأَسْمَاءَهُ وَصِفَاتِهِ وَمُوجِبَ حِكْمَتِهِ وَحَمْدِهِ وَوَعْدِهِ الصَّادِقِ .
فَلْيَعْتَنِ اللَّيِّبُ النَّاصِحُ لِنَفْسِهِ بِهِذَا، وَلْيَتَّبِعْ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرْهُ مِنْ ظَنِّهِ بِرَبِّهِ ظَنُّ السَّوِّءِ .

وَلَوْ فَتَشْتَ مَنْ فَتَشْتَ لَرَأَيْتَ عِنْدَهُ تَعَتُّتًا عَلَى الْقَدَرِ وَمَلَامَةً لَهُ، وَأَنَّهُ كَانَ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ كَذًا وَكَذَا، فَمُسْتَقِلٌّ وَمُسْتَكْبِرٌ، وَفَتَشَّ نَفْسَكَ هَلْ أَنْتَ سَالِمٌ؟

فَإِنْ تَنْجُ مِنْهَا تَنْجُ مِنْ ذِي عَظِيمَةٍ
وَالْأَفْئَاتِي لَا إِخَالَكَ نَاجِيَا»

قال ابن القيم: أي: في زاد المعاد في الكلام على ما تضمنته وقعة
أحد، ومناسبة ذكر كلامه هنا توضيح معنى الآية الكريمة.
فُسِّرَ هذا الظن: أي المذكور في قوله تعالى: ﴿يَظُنُّوكَ بِاللَّهِ غَيْرَ
الْحَقِّ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

سيضمحل: أي: يذهب ويتلاشى حتى لا يبقى له أثر.
والاضمحلال: ذهاب الشيء.

ففسر: أي: فسّر هذا الظن بثلاثة تفاسير.

بإنكار الحكمة: أي: أن ما أجرأه في وقعة أحد لم يكن لحكمة
بالغة وهي التي أشار إليها بقوله تعالى: ﴿وَلَيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ
وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

وإنكار القدر: أي: أنهم لو أطاعونا ولم يخرجوا ما قتلوا.
وإنكار أن يتم أمر رسولهم: حيث ظنوا أن المشركين لما ظهروا
تلك الساعة أنها الفاصلة وأن الإسلام قد بادأ أهله.

في سورة الفتح: أي: الظن الذي ذكره الله عن المنافقين
والمشركين في سورة الفتح في قوله تعالى: ﴿.. الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ ظَنٍّ
السَّوْءِ..﴾ [الفتح: ٦].

يدبل الباطل: أي: يجعل له الدولة والغلبة.

تعتأ على القدر: أي: اعتراضاً وافتراضاً عليه.

فمستقل ومستكثر: أي: من هذا الاعتراض على القدر.

فإن تَنجُ منها : أي : مِنْ هذه الخصلة .
تَنجُ من ذي عزيمة : أي : مِنْ أمرٍ ذي مصيبةٍ عظيمةٍ .
إِخَالُكَ : بكسرِ الهمزةِ أي أَطْنُكَ .
ناجياً : مِنْ الاعتراضِ على القدرِ .

* * *